

رحلة العبد الغريب في جنبات الربع العجيب

ادريس الصغير

الاناما، الصفراء المعروقة المتبيسة تدلك صفحة الجبين المتجمعة العريضة، ودخينة التبغ الاسود الرخيصة تحترق بين الشفتين المتشققتين. هذا أنا. وهذه اللعنة كفيل كارطوني ضخمة مخيف. الانامل تدلك صفحة الجبين، تمسك الحبيبات المقيحة. تلامس شعيرات الرأس التي لم تعرف في يوم ما تصفقا ولا مستحضرات طبية أو صابونا معطرا، وشرر العين يسمح المرئيات بحقد. حقد تشاهد عجا. هذا أنا. وهذه اللعنة الفيل الكارطوني المخيف. انتبه - الآن تبدأ اللعبة - ان تحق تشاهد عجا.

« ومن عجيب الامر في هذا الربع ان الرجل منهم ينزع قلب جاره أو صديقه أو قريبه ثم يخلطه بشيء من الملح والفلفل ويشويه على النار مدة يسيرة فاذا أكله رفع عينيه الى أعلى وما طلب بعد ذلك شيئا من نعم الدنيا الا ناله. وللحيطان عندهم عيون كعيون البشر وأسماع. لذاك ترى الرجل منهم يهمس في أذن صاحبه ان أراد حقا، ويجهر ان زعم باطلا. والمارق عن نواميس مدينتهم يسجلون اسمه على فرع من شجرة اللوط بقلمونه تقليما حسنا ثم يرشون عليه شيئا من ماء الزهر فاذا اطلقوا البخور عند مغرب الشمس ورموا بالفرع في أعماق النهر غاب الرجل ولم يعرف له مصير بعد ذلك. ومن الناظر المألوفة عندهم في هذا الربع أن الرجل منهم يكون سائرا في الشارع لقضاء وطر فاذا به ينعدم وكأن أيادي خفية اختطفته الى حيث لا يعلم أحد. ويعزي بعض الفقهاء هذه الحالة الاخيرة الى تواجد فصيلة من الجن الخبيث بهذا الربع، غير أن كثيرين يعلمون سر هذه الظاهرة لكنهم لا يخوضون في هذا لان نواميس المدينة تحرم ذلك، وهذا منصوص عليه في القانون الاول من مسطرة الجنايات الكبرى باب: ما تقول وما لا تقول. او كما يسميه بعض المتفكرين: باب: لا تقل بل قل. »

وقد حكى أحد الرحالة عن الربع في كتابه: « رحلة العبد الغريب في جنبات الربع العجيب » فقال:

« ربع أين منه الفردوس ، صفى ماؤه ونما زرعه واخضر سهله وخصبت أرضه ودفنت قطوفه . خيراته لا يحصيها البشر ، ومحاسنه لا يشبع منها النظر ، وأمره يحير الالباب والفكر . كنت أخال ساكنيه أسعد الانام وقاطنيه خير عن يرمل في حل الامن والسلام ، لكنني لما عاينت أمرهم ، واستقصيت همهم ادركت أنهم في بؤس بئيس . في مشيتهم انكساره ، وفي طعامهم مرارة وتومض من عيونهم ألف شرارة ، ويعزي الفقهاء حالة أهل الربع العجيب وانزلاق عيشهم الى أسفل الحضيض بتوافر عينة من الجن المارد ، يستأثر وحده دونهم بتصرف الخيرات المورد منها والوارد ، ولا يبقى لهم منها سوى ما عنه قصل ، وما لم تستسغه نفسه من طعام أو بقل . هذا ما حدثني به فقيه بكلام مبهم والله عز وجل بما قاله القائل أعلم . »

— هذا الربع ليس موجودا الا في خيالك .

— بل هو موجود حقيقة . فقط حقد تشاهد عجا .

« ... ولما عاينا حالة المعني بالامر ، اكتشفنا أنه مخبول يهذي بربع خيالي لا وجود له مطلقا ، وهو تارة يسميه ربعا وأخرى يكنيه مدينة ، لذلك نقترح الحاقه بمستشفى المجانين قصد العلاج .

ملاحظة هامة جدا : المعني بالامر مسالم لا يستعمل يديه بتاتا ، فقط يكتفي باستخدام لسانه لكن عينيه ترسلان شررا غريبا نخال أنه يكبت في باطنه شيئا قد ينفجر يوما . عاملوه بكثير من الحيلة والحذر . »
وتلك الانامل الصفراء المعروقة صفحة الجبين ثم تمعك غلبة السجائر السوداء الرخيصة لتقذفها القدم بعيدا بركلة لاعب كرة محترف .
هذا أنا . واللعنة .

أنا وانت ايتها اللعنة والزمن بيننا طويل .

ولما اختفى تلك الليلة لم يبكه أحد . وحدها التي قاسمته حياة الجوع والمرض والخوف والانكسار . وحدها تجر الدمع في مقلتيها الواسعتين الجميلتين وأصابها ذمول بارد رهيب .

« والملاحظ عند أهل الربع أنهم ينسون المختفي منهم نسيانا تاما وينصرغون الى أمور دنياهم انصرافا كليا ، وقليل منهم من يذكره في فرق وهمس واضطراب خشية الجن الخبيث . ويقول بعض العالمين بالامور بأن الناسين انما يدعون النسيان . اذ أنهم يخرجون متى ذكرهم أحد فيتلعثمون في الكلام ويلجؤون الى تمطيط شفاههم ورنع فمكبيهم وحك بطونهم المفتحة . »

وحدها . والليل بهيم ، ليل الدموع والجوع والبرد والرهبة .

قد يكون الآن ملصقا الى جذع نخلة يكتسي بثوب السافيات . قد يكون في اعماق نهر تلتهم الحيتان مقلتيه . قد يكون ...

حين جلس الى اصديقائه بالمقهى في آخر يوم له لم ينس نسيان شفة ، فقط

اكتمى بالاستماع ، بل انه لم يختطف من الحديث سوى جمل مبتورة وصني
ضحكات فاترة . كان يفرط في ملء رثتيه من دخان سجائره الرخيصة .
كان منذ أن قذفت به أمه خارج بطنها يعيش حياة كلب . لم يطعم في حياته
سوى النفائات . لم يضحك يوما . لم يشيع . لم يشعر يوما بانسانيته .
صادروا منه كل شيء . قتلوا فيه كل شيء . كان يعيش حياة كلب . وكانت
أفواج الكلاب تمارس حياتها الوضيعة على أرصفة الطرقات وبين طاولات
المقاهي وأبواب الاسواق العصرية النظيفة . أيادي منتفخة محاطة بجبيرة
قصيبة ، عيون ينخرها الجذام ، أرجل خشبية تحفر بحقد أديم الارض .
وجوه كالحة وأرجل معروقة وصدور فارغة .

لما أشرقت الشمس ذلك الصباح كان موح البحر صاخبا ، ولما حدثت جينا
بمقلتيها الجميلتين لمحت في المدى البعيد قاربا يصارع الامواج . كان يعطر
تارة ويهبط أخرى لكنه يظل متواجدا فوق صفحة الماء الغاضبة . تفقدت أرجاء
غرفتها بعينيها الجميلتين . كانت رائحته الغريبة الحبيبة تعبق المكان .
تفوح من كتبه وثيابه ووسادته . وتحجر الدمع في مقلتيها .

أدريس الصغير